الوسط Alwasat
يومية - سياسية - مستقلة

6 084010 041004 >

Saturday 3 September 2005, Issue No. 1093 | رقم التسجيل بمملكة البحرين: GWAS 407 | العدد 1093 السبت 3 سبتمبر 2005 الموافق 29 رجب 1426هـ

الجديدة
متعددة
مريحة
وات أو ٦٠ ألف كم
بترول الحسن

ملف خاص بتجربة الشاعر علي عبدالله خليفة - الملف الشهري الثالث

تجربة شعرية انحازت الى المضامين الجديدة

علي عبدالله خليفة ودعوة الى نهايات مفتوحة

■ الوسط - جعفر الجمري

□ كل قراءة محفوفة بهاجس الدخول الى مساحات بكْر في تناولها وإضاءتها، وما لم يكن مثل ذلك الهاجس حاضرا، ماثلا، مسلّحا بأدواته المعرفية، وبما يسعفه في مثل ذلك الولوج، تصبح القراءة ضرباً من حوار «الطرشان»، أو ربما ضرباً من الحرث في الماء!.

وتظل القراءة، وخصوصا لنماذج من الأدب الشعبي محفوفة - بالإضافة الى هاجس الدخول الى المساحات البكْر - بهاجس التأسيس والدخول بجرأة مضاعفة، وبأدوات أكثر حساسية وعمقا، أولا لشبه انعدام التراكم في تلك القراءات المؤسسة، وغياب المنهج النقدي الذي يمكن الإتكاء عليه في قراءة وتحليل وتفكيك تلك النماذج، اذ لا تعدو مجمل القراءات في هذا المجال كونها انطباعية، ذاتية، من جهة، وغير ملامسة، نافذة، موغلة في تناولها واضاءاتها لتلك النماذج، من جهة أخرى، بحكم موقف يبدو أنه سيظل مؤبّدا، ينظر الى الأدب الشعبي باعتباره نقيصة، أو أقل من أن يُلتفت إليه، في ظل نجومية واستحواذ شبه كلي ناله ويناله الأدب الرسمي/ الفصيح، على رغم أن تناولات ذلك الأدب لا تخلو من مفارقاتها وثغراتها وتجييرها لمناهج لا تلتقي مع مكونات وخصوصيات ذلك الأدب، وما ينتج عنه من نماذج.

علي عبدالله خليفة

تبرز تلك المقدمة توطئة لمحاولة اضاءة تجربة الشاعر البحريني المتميز علي عبدالله خليفة، في ملف يحاول تقديم نماذج من تجربته، مع محاولة الإقتراب من بنائية نصه، والمصادر التي يمتح منها، اضافة الى الأثر الكبير الذي تعكسه تجربته في الشعر الفصيح على بنائية وحمولات قصيدته العامية، من دون أن نهمل جانبا كبيرا من الأهمية في تجربته يتركز في تميزه وقدرته الشفافة والأخاذة في أداء نصوصه وإلقائها، وهو واحد من الشعراء البحرينيين والخليجيين القليلين الذين يتمتعون بعذوبة الصوت وروعة الأداء، يضاف الى تجربته الرائدة في المجموعات الشعرية المسموعة، وتحديدا مجموعته «عصافير المساء».

يعد الشاعر علي عبدالله خليفة واحدا من رواد القصيدة العامية بتميز، جنبا الى جنب عدد من الأسماء الشعرية في مملكة البحرين، على اختلاف توجهاتهم ومدارسهم الشعرية، ومن بينهم شاعر البحرين الكبير الراحل الشيخ أحمد بن محمد آل خليفة، ومبارك بن عمرو العماري، وابراهيم بوهندي، وخليفة اللحدان وغيرهم.

ما يميز تجربة خليفة هو انجاهها صوب المضامين الجديدة، بكل ما تعنيه تلك المضامين من تماش واضح مع اللغة التي يكتب بها، وبنزوعه الى تجاوز تلك المضامين في صورها غير المباشرة في الكثير من نصوصه، من دون أن تغيب المباشرة تلك في عدد آخر من النصوص.

بنائية القصيدة

تشكل بنائية القصيدة لدى الشاعر علي عبدالله خليفة منعطفا مهما ورائدا مقارنة بالتجارب التي جايلت تجربته أو تلك التي سبقتها، اذ تتميز بالمحافظة على شكلها التقليدي في جانب من جوانبها المهمة وخصوصا في النوال الذي حقق له حضورا كبيرا تجاوز به مملكة البحرين الى بقية دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، وخصوصا في الكويت ودولة قطر، اذ لم يبالغ كثيرون حين رشحوه لأن يكون سيد هذا الضرب من الشعر، والقابض على زمامه من دون منازع.

باستثناء ذلك اللون من الشعر كيّف الشاعر خليفة الأشكال التي أفرغ فيها عددا من المضامين والموضوعات التي اشتغل عليها، بحيث أتاحت له تبعا لمرونتها التنوع في البنائية التي لم تنفصل ابدا انفصال عن شروطها الرئيسة من تعدد التفعيلات من جهة، وتزامنها مع القوافي التي لم تك تشكل هاجسا له على رغم حضورها وتمركزها في نصوصه، الا انه حضور وتمركز متزامن ومتماش مع طبيعة الموضوعات تلك وبعفوية بالغة من دون أن تلمس أي افتعال لذلك الحضور والتمركز.

ظل واحد من الأشكال المكرّسة في الثقافة الشعرية الشعبية الخليجية، غائبا في تجربة الشاعر علي عبدالله خليفة، وهو الشعر النبطي، ولم يقف المتتبع لتجربته الشعرية الطويلة على أي من تلك النماذج، ليس لأن الشاعر خليفة غير قادر أو متمرّس في ذلك الشكل الشعري، بقدر ما أن طبيعة موضوعاته في بعدها الإنساني والوجداني تتطلب نفَسا مختلفا ومدارك لها أوجهها الخاصة، وتوظيفاتها المغايرة إنْ على مستوى اللغة أو الصورة أو حتى التوظيفات الرمزية التي نحتاج الى مدى مفتوح تتيحه بعض الأشكال التي انحاز اليها خليفة طويلا، وهو الشكل المرن غير المقيد بصدر أو عجز، على الرغم من اكتنازه بشروط بنائه الخاصة التي لم يتخل عنها.

المصادر التي ينهل منها

ظلت البيئة مصدرا خصبا من مصادر التجربة الشعرية لعلي عبدالله خليفة، ولكنه لم يك مصدرا يعمد الى استقباله بكل ما يعج به من مباشرة ومن ثم توظيفه في كثير من نصوصه، بقدر ما أن استقباله لصور ومشاهد واشتغالات وقيم تلك البيئة مرتبط بوعي كبير في مسألة التوظيف تلك، وبما يخدم المضامين الكبرى التي تتخلل الكثير من نصوصه، وهي مضامين مرتبطة بالإنسان وقيمه وانفعالاته وأحلامه وانكساراته، وفرحه وبؤسه.

ويمكن القول إن الشاعر علي عبدالله خليفة، في كثير من نصوصه ظل صوتا لنماذج أولئك البشر الذين انحاز وتفاعل وانفعل بهم ومعهم، صوتا رخيما في صدق الأداء، عبر اجتراحه وخلقه لصور غاية في العمق والإيحاء وتلمس المغاير من أبعاد وزوايا تلك الصور.

ظلت المقاربات الكثيرة لصور وقضايا وتفاصيل تلك البيئة دالة موحية وملتصقة بالرهيف والإنساني منها، مشتغلا على مساحات من العاطفة ضمن بعدها العميق، مع تنوع في توظيفاتها في النص.

أثر تجربة الشعر الفصيح

لا شك أن تجربة الشاعر علي عبدالله خليفة في كتابة الشعر الفصيح، منذ أواخر الستينات من القرن الماضي، أتاحت له فضاء رحبا في تجربة الشعر العامي، وأمدّته - من خلال المزاوجة في القاموس اللفظي - بطاقة لا شك كبيرة في العمل على التجربة وتصاعدها التدريجي سواء من حيث الأشكال أو المضامين.

ولعل أكبر أثر لتجربته في الشعر الفصيح على الشعر العامي، هو تلك الملامسة الواضحة والواعية في طبيعة قاموسه اللفظي العامي، والذي كثيرا ما يأتي قريبا من حيث تركيبه ومدلوله من القاموس الفصيح، اضافة الى انها أمدته برحابة في التنويعات التي اكتنفت مجمل أعماله الشعرية، يضاف الى ذلك التقاطه المدرك لموضوعاته والقفز بها من مرحلة التسطيح الذي انتاب الكثير من التجارب الشعرية العامية، الى مرحلة تعميقها وضخ أكبر قدْر من المدلولات وبلغة لا تحتاج الى كبير جهد لتلمس عمقها ورصانتها واستواثها وإمساكها الملئ بالأخاذ من الصور.

لقد اكتسبت اللغة العامية التي يكتب بها الشاعر خليفة الكثير من رصانة ونماسك وايحاءات لغته الفصحى، بحيث صار من النادر أن تقف على العامي المحض منها، ليس فقط على مستوى تركيباتها، بل حتى على مستوى المدلولات نفسها، يضاف الى ذلك اتسام نماذج من تجربته بتلك الحوارية الداخلية التي تنساب في صور ومشاهد تذكر بقصة لها بداية، الا انه يضعك أمام نهايات مفتوحة، وكأنه بذلك يضع أمامك دعوة للمساهمة في رسم النهاية اللائقة بك أو كما تراها تبعا لاستقبالك وتفاعلك مع النص. ولعل نماذج من النصوص المنشورة في الملف الخاص بالشاعر في عدد اليوم، تنبئ عن شيء مما نحن بصدده.

موهبة الصوت... الأداء

في العام 1996 تناولت هذا الجانب من تجربة الشاعر علي عبدالله خليفة في مقال في الصفحة الأخيرة من مجلة حياة الناس، وكان التناول وقتها عبارة عن قراءة في الصوت والأداء، نحت منحى تظهيريا، وبلغة لم تستطع أن تنسلخ من شعريتها.

يعد شاعرنا واحدا من أفضل الذين يقرأون ويؤدون نصوصهم ببراعة لا يمكن نكرانها بأي وجه من الوجوه، ولعله في الأشرطة الصوتية التي حوت مجموعته الشعرية المسموعة لأولى «عصافير المساء»، فتح الباب على مصراعيه لتجارب حذت حذوه ونهجت نهجه، وإن بمستويات أقل في البراعة التي أشرنا اليها.

تأخذك نصوص علي عبدالله خليفة وهو يؤديها بصوته الى مساحات رحبة من التواصل مع النص بغض النظر عن مدى المباشرة أو عدم المباشرة فيها، تظل هكذا متسمّرا، هائما، محلّقا معه في آفاقه التي ارتضى وأقام.

حضور

■ شعر - علي عبدالله خليفة

□ إلى فقط نماذج دالّة على عذوبة هذا الصوت وأصالته، يحر بك من دون أن يعدك بالعودة الى نفس الساحل، يتركك في مهبّ صور وأخيلة وعذابات لا شك تتذكر أنك كنت يوما ما على مقربة منها، بل وفي العميق من تفاصيلها. نماذج لحالات كل واحد منا، لعذاباته وربما أفراحه المؤجلة.

نجوم الليل مالها أول ولا آخر...
ونجم سهيل فارق بينها ظاهر...
كل نجم على قد انضوى يساهر...
نجم يبلى وينطفى
ونجم مهما يغيب
يظل دايم بيننا حاضر.

بستان الفرح

لا تفرحي ولا تحزني...
ليمن نشرت الشعر فيك على الملا...
الشعر بستان الفرح، لين امتلا...
وزع وروده عمى البشر...
حتى تعم الكون كله فرحته...
ويهز عطره كل قلب...
مثلما عطّر فؤادي وهزني...

خمرة إحساس

أنا العشق في مهجتي يا صاحبي ديره...
ومحبوبتي سكانها تغني عن الناس...
وانا لي والوله في كل الايام سيره...
وكل الأشواق فْحياتي خمرة احساس...
على ما تبي ذوّقني الشيره...
والمرّ منّك يا صاحبي على العين والراس.

يمطر عشق

اشقيتني يا زمن، وأمليتني بأحزان، وجروح
من ذا يعانج عذابات النّفسْ، ويضمد الروح؟
لوما العشب والشجر والفن كان القلوب تروح
والشعر غيمة فرح تمطر عشق في مهجتي وحيا
مهما أغالب رماني وامتحن ما ينقطع وحيه
الشعر هذا نديمي لي ذهب كلما انتبلوح يه
اهو بلاحي ورفيجي والنفس اللي يجي ويروح

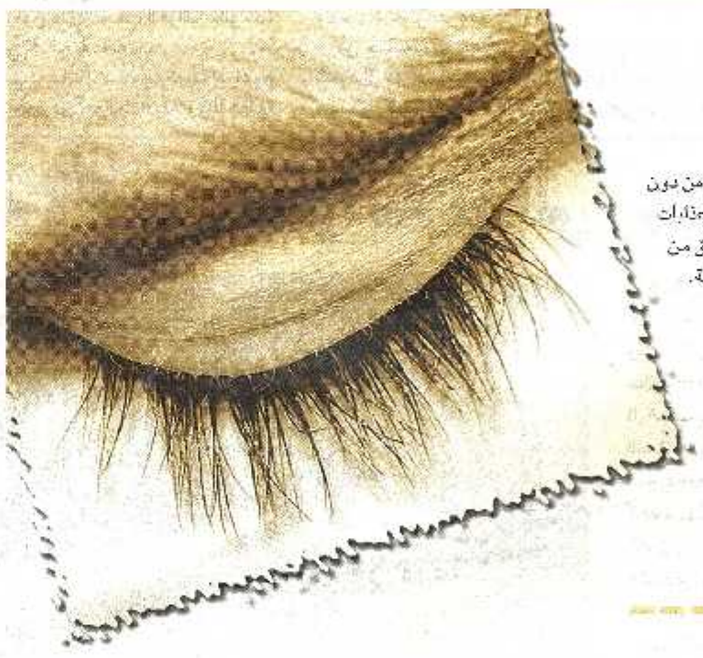

قمر وحيد

قمر وحيد... وانت انسما
العشق لك ويا النجوم
والعشق لك... ويا الغيوم المعتمه
العشق لك معنى كبير
أحتاج انا أتعلمه
ادخل حدود الكون به
واشفي ديار امهدمه
أتهجى حلمه حرف... حرف
وفي الحقيقه أرسمه
وافهم معاني الشوق فيه
تطلع حروفي من الضوى... وتكلمه
وأكبر مع قلبي... فداك
في كل ليله ملهمه.

رَيْ

انا رجيتك سيدي لا تقطع الماي
عن زرع حبي بالشفافه طلع لي
أمضيت كل العمر
أعزف رجايه على الناي
واقول: يا زرع العمر محلوفهم لي
حتى طلع واحد في البشر أدرك ظماي
بيده الروى، لكن شحيح حصل لي.

لا تزعَلي

لا تزعلي... هذا الزعل
ورد الحديقه ما فقد لونه
ولا بعده ذبل
والنار في مدفا هوانا
رمدت، بس ما انطفت
شوقي يغذيها شعل
والليل بعد الليل عينا ينجلي
من دون همسك للنجوم الرجي
وانتي كما انتي بخيالي تعتلي...
لا تزعلي.

***

لا تزعلي... هذا الزعل
اللي حصل بيني وبينك قد مضى...
غصه وبددها حنيني في الفضا
والكلمه سيفر لي سطا
ادري أنا... جرحه أبدْ ما يندمل
لكن صد فيني الجروح
ماهي سوا...
جرح غصب حتى انتعافى نقيله
وجرح انتحاشى سكته...
ومن انطبيعي نرفضه
واحنا على ما يشتهي هذا الزمن
نمشي على جمر القضا
لازم نسلم جرحنا... ونعالجه
ونحب أكثر بعضنا
مهما جرى ومهما حصل
حاشاك مره تزعلي.

***

لا تزعلي... هذا الزعل
درس الحياه لتعلمه...
ومن الصعوبه نفهمه
الشمس ما تشرق ولا تضيع نجوم
في سما تصفر ولا تفارق غيوم
خساره هالعشره تهون
والقلب ينكر وينبرا من دمه
يصبح غريب
ذاك الحبيب اللي يهون
ويضيع كل شي اولى
يا وحشة الدنيا إذا انتي تزعلي

***

لا تزعلي... هذا الزعل
شالني حدث بيني وبينك
حتى نخسر بعضنا
وتضيع دنيا من الوله
والشوق مايطرح جنى
كنا التصافى في هوانا وعشقنا
صدّقت أنا لون الربيع بكلمتك
وانتي بمعاني الشعر عندي موقنه
شالني حصل
حتى يكون الدرب غير
حتى ينال البعد مني مقتلي
لا تزعلي

***

لا تزعلي... هذا الزعل
أحتاج لك
حاجة ظلام الكون كله للضوا
واحتاج لك
حاجة لهيب الصيف حق نسمة هوا
احتاج أنا ذيك العيون الساحره
وذاك الحنان اللي أموت وأذكره
خلنا انتجاوز أي لحظه عابره
ونعيد مجد الليل للقمره سريع

***

ان كنت أنا مخطي، ترى
صدرك وسيع
واي قطره في البحر... لازم تضيع
ملح البحر الكل منا يعرفه
لكن على كفوف الرضا...
ماي البحر يصفى عسل
يالله تعالي والهلي
لا تزعلي... لا تزعلي

□ إلى مشاعاة برحابة الروح والقلب وعذوبة العاطفة، مشاعاة تتلمس البهي والمضيء من أوقات الحياة، بحيث تحيل الأمكنة الموحشة الى أمكنة ودّ، بدفء العلاقات وبياضها اللا نهائي.